الدولة الفاطمية

قيامها وزوالها وخراب القصور الزهراء

بقلم الدكتور أحمد عيسى بك

كان الدكتور أحمد عيسى بك عند ما وضع رسالة البيمارستانات، قد ألف رسالة في القصور الزهراء وهي التي أنشىء مكانها البيمارستان المنصوري للاوون، ثم توسع في الكتابة حتى أتم وضع تاريخ لقيام الدولة الفاطمية وانقراضها، وهذا هو الفصل الأخير من تلك الرسالة نقدمه لقراء «المعرفة» حتى يعلم جمهور القراء كيف زالت دولة تعد من أعظم الدول الاسلامية مدنية. المحرر

في تدهور الدولة الفاطمية وزوالها وخراب القصور الزهراء

كان آخر خلفاء الدولة الفاطمية في مصر هو العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله بن يوسف، ومولده لعشر بقين من المحرم سنة ٥٤٦ هـ، ولي الخلافة بعد موت الفائز، وكان عمره يوم بويع إحدى عشرة سنة، فقام الصالح طلائع بتدبير الأمور إلى أن قتل سنة ٥٥٦، فقام بعده ابنه رزيك بن طلائع ثم ثار عليه شاور بن مجير السعدي وقبض عليه، واستقر شاور في الوزارة مكانه سنة ٥٥٨ فأقام بها إلى أن ثار ضرغام ففر منه شاور إلى الشام واستبد ضرغام بالوزارة فقتل أمراء الدولة وأضعفها بسبب ذهاب أكابرها: فقدم الفرنج وأغاروا على بلبيس، فردوا عنها مراراً، فوصل شاور بعساكر الشام سنة ٥٥٩، فحاربه ضرغام بعساكر مصر فانهزموا، وغنم شاور سائر ما خرجوا به حتى آل الأمر إلى هزيمة ضرغام وقتله، فاستولى شاور على الوزارة مرة أخرى، واختلف مع الغزاة القادمين معه من الشام، فاستعان عليهم بالفرنج، فكتب شاور إلى ملك الفرنج يستدعيه إلى القاهرة ليعينه على محاربة شيركوه، فحصلت بينهما وقائع واستفحل أمر شاور بمساعدة الافرنج واستبد بالناس وقوي طمع الافرنج في البلاد وجاروا في حكمهم فكتب الخليفة العاضد إلى نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام يستصرخه ويحثه على نجدة مصر وإنقاذها من الفرنج وقتل شاور، فجهز أسد الدين شيركوه في عسكر كثير، وسيرهم إلى مصر، فنزل شيركوه على القاهرة وقتل شاور، فخلع عليه العاضد وأكرمه، وتقلد شيركوه وزارة العاضد فقام بالدولة شهرين وخمسة أيام ومات، فنوض العاضد الوزارة إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب، فساس الأمور ودبر لنفسه، فبذل الأموال وأضعف العاضد فلم يزل أمره في ازدياد وأمر العاضد في نقصان، وصار يخطب من بعد العاضد للسلطان نور الدين محمود بن زنكي وأقطع أصحابه البلاد واستبد بالأمور ومنع العاضد من التصرف حتى تبين للناس ما يريده من إزالة الدولة إلى أن كان من واقعة العبيد وقتل مؤتمن الخلافة الخصي الذي كان بالقصر، فلما قتل غار السودان

وثاروا ، فأبادهم صلاح الدين وأفناهم ، وكانت الواقعة بين القصرين تحت سمع العاضد ونظره وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه ، ومن حينئذ تلاشى العاضد واضمحل أمره ، ولم يبق له سوى إقامة ذكره فى الخطبة فقط ، هذا وصلاح الدين يوالى الطلب منه حتى لم يبق عند العاضد غير فرس واحد فطلبه منه فصار لا يخرج من القصر البتة ، وتتبع صلاح الدين جند العاضد ، وأخذ دور الأمراء واقطاعاتهم ، ووهبها لأصحابه ، وعزل قضاة مصر الشيعة ، وقلد القضاء قضاة شافعية ، فتظاهر الناس من تلك السنة (٥٦٢) بمذهب مالك والشافعى واختفى مذهب الشيعة ، وتحدثوا بخلع العاضد وإقامة الدعوة للعباسيين بالقاهرة ومصر ، ثم قبض على سائر من بقى من أمراء الدولة ، وأنزل أصحابه فى دورهم فأصبح فى البلد من العويل والبكاء ما يذهل ، وتحكم أصحابه بالبلد ، وقبض على بلاد العاضد وأقطاعه ، ومنع عنه سائر مواده ، وقبض على القصور ، وسلمها الى الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى ، فضيق على أهل القصر ، وصار العاضد معتقلا تحت يده ، وأبطل من الآذان حى على خير العمل ، وأزال شعار الدولة ، وخرج بالعزم على قطع خطبة العاضد والدعاء للمستنجد العباسى ، وكان الخليفة المستنجد بالله قد أرسل من بغداد الى نور الدين محمود بن زنكى يدعشق يعاتبه من تأخير إقامة الدعوة له بمصر ، فأحضر الأمير نجم الدين أيوب وأخرجه الى ولده صلاح الدين يوسف بمصر يطلب منه قطع الخطبة عن العاضد وإقامتها للعباسيين وأصحبه بالهدايا السنية ، فخرج العاضد لتلقيه الى ظاهر باب الفتوح ولم يجر بذلك عادة من قبل وخلع عليه العاضد ولقبه الملك الأفضل وأفرد له داراً الى جانب داره ، وحمل اليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا وأقطعه البلاد ، فلما بلغ الى صلاح الدين أمر الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بقطع الخطبة العاضدية وإقامة الخطبة العباسية اعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة الى ذلك لميلهم الى العلويين ، فلم يصغ نور الدين الى قوله وأرسل اليه يلزمه لزاماً لا فسحة له فيه ، واتفق أن العاضد قد مرض وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة له فاستشار الأمراء كيف يكون الابتداء بالخطبة العباسية ، فمنهم من أقدم على المساعدة ومنهم من خاف ذلك ، وكان قد دخل الى مصر إنسان أعجمى يعرف بالأمير العالم فلما رأى ما هم فيه من الاحجام قال أنا أبتدىء ، فصعد المنبر فى أول جمعة من المحرم ودعا للمستضىء بأمر الله لأن المستنجد بالله أبا المظفر يوسف بن المقتفى كان قد مات ، فلم ينكر ذلك أحد عليه ، فلما كانت الجمعة الثانية ، أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضىء بأمر الله ، وكتب بذلك الى سائر الديار المصرية ، وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك ، وقالوا إن سلم فهو يعلم ، وإن توفى فلا ينبغى أن تنغص عليه هذه الأيام التى قد بقيت من أجله فتوفى يوم عاشوراء بعد قطع الخطبة بثلاثة أيام . ولم يعلم مات وعمره إحدى وعشرون سنة إلا عشرة

أيام ، منها فى الخلافة إحدى عشر سنة وستة أشهر وسبعة أيام سنة ٥٦٧ (صبح الأعشى) .

ولما اشتد مرض العاضد أرسل يستدعى صلاح الدين ، فظن أن ذلك خديعة فلم يمض إليه، فلما توفى علم صدقه فندم على تخلفه عنه ، وقيل إن ندم صلاح الدين كان على استعجاله بقطع خطبته وهو مريض ، وقال لو علمت أنه يموت من هذا المرض ما قطعتها الى أن يموت، وجلس صلاح الدين للعزاء وأغرب فى الحزن والبكاء وبالغ فى إجمال أمره والتوديع له الى قبره، ثم تسلم القصر ،وكان منذ قتل مؤتمن الخلافة وكل بهاء الدين قراقوش بالقصر وجعله زمامه واستنابه مقام نفسه، فما دخل الى القصر شىء ولا خرج إلا بمرأى منه ومسمع، فبطلت تلك القواعد ووهت المعاقد وأمر السلطان بالاحتياط على أهله وأولاده فى موضع خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد، وقرر ما يكون لهم برسم الكسوات والأقوات والأزواد، وجعلهم فى دار المظفر بحارة بيرجوان، وكانت تعرف بدار الضيافة، فكانت عدة الأشراف فى القصور مائة وثلاثين، والأطفال خمسة وسبعين، ومنهم الأمير داود بن العاضد وكان ولى العهد وينعت بالحامد لله ومعه جميع أخوته: الأمير أبو الأمانة جبريل، وأبو الفتوح، وابنه أبو القاسم، وسليمان ابن داود ، وعبد الوهاب بن العاضد ، واسماعيل بن العاضد ، وجعفر بن ابى الطاهر بن جبريل، وعبد الظاهر حيدرة بن العاضد ، وجماعة من بنى أعمامه، وعبد الظاهر بن أبى الفتوح ابن جبريل بن الحافظ، وجمع الباقين من عمومتهم وعترتهم فى إيوان من القصر، واحترز عليهم فى ذلك المكان ، وفرق بين الرجال والنساء لئلا يتناسلوا فيكثروا، وليكون ذلك أسرع لانقراضهم ، فظلوا محصورين محسورين لم يظهروا ، وقد نقص عددهم وقلص مددهم ، ثم عرض من بالقصر من الجوارى والعبيد والعدة والعديد والطريف والتليد ، فوجد أن أكثرهن حرائر فأطلقهن، وجمع الباقيات فوهبهن وفرقهن ، وأخلى دوره وأغلق قصوره ، وسلط جوده على الموجود ، وأبطل الوزن والعد عن الموزون والمعدود ، وأخذ كل ما صلح له ولأهله وامرأته وخواص مماليكه وأوليائه من أخائر الذخائر وزواهر الجواهر ونفائس الملابس ومحاسن العرائس وقلائد الفرائد والدرة اليتيمة والياقوتة العالية الغالية القيمة والمصوغات التبرية والمصنوعات العنبرية والأوانى الفضية والصوانى الصينية والمنسوجات المغربية والممزوجات الذهبية والمجبوكات النضارية والكرائم واليتائم والعقود والتمائم والنقود والمنظوم والمنضود والمحلول والمشدود والمنمون والمنحوت والدر والياقوت والحلى والوشى والعبير والحبير والوثير والنثير والعين واللجين والبسط والفرش وما لا يعد إحصاء ولا يحد استقصاء ، وفيه ما تخلو الدنيا من مثله من الجواهر التى لم توجد عند غيرهم ، فمنها الجبل الياقوتى وكان وزنه ١٧ مثقالا، قال ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٦٧: أنا لا أشك فى ذلك فانى رأيته ووزنته، واللؤلؤ الذى لم يوجد مثله والنصاب الزمرد الذى طوله أربع أصابع فى عرض عقد

كبير أى مقدار الابهام، ووجد فيه إبريق عظيم من الحجر المانع ووجد فيه سبعمائة بقيمة من الجوهر ووجد فيه طبل كان بالقرب من موضع العاضد ، وقد احتاطوا له بالحفظ فلما رأوه ظنوه عمل لأجل اللعب فيه فسخروا من العاضد فأخذه إنسان فضرب به فضرط فتضاحكوا منه ثم آخر كذلك فكان كل من ضرب به ضرط فألقاه أحدهم فكسره فاذا الطبل لأجل القولنج فندموا على كسره لما قيل لهم ذلك ، فأما قضيب الزمرد فقد كسره السلطان وفرقه على نسائه وحصل على اليتيمات وقطع البلخش والياقوت ، وأما الأبريق فأنفذه إلى بغداد فوقع فى هذه كلها الفناء وكشف عنها الغطاء وأسرف فيها العطاء وأطلق البيع بعد ذلك فى كل حدث وعتيق ولبيس وسحيق وبال وأسمال ورخيص وغال وكل منقول ومحمول ومصوغ ومعمول واستمر البيع فيها مدة عشر سنين وتنقلت إلى البلاد بأيدى المسافرين الواردين والصادرين، ومن جملة ما باعوا خزانة الكتب وكانت من عجايب الدنيا ، لأنه لم يكن فى جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من الدار التى بالقاهرة فى القصر ، وكان لبيعها فى كل أسبوع يومان ، وهى تباع بأرخص الأثمان وخزائنها فى القصر مرتبة البيوت مقسمة الرفوف مفهرسة بالمعروف ، فقيل للأمير بهاء الدين قراقوش متولى القصر والحال والعاقد للأمر : هذه الكتب قد عاث فيها العث وتساوى ثمنها والغث ولا غنى عن تهويتها ونفضها وإخراجها الى أرضها ـ وهو تركى لا خبرة له بالكتب ولا دربة له باسفار الأدب ـ وكان مقصود دلال الكتب أن يوكسوها ويخرموها ويمكسوها فتولى بيعها ابن صورة فأخرجت وهى أكثر من مائتى ألف كتاب من أما كنها وشتت شملها واختلط أدبيها بنجوميها وشرعيها بمنطقيها وطبيبها بهندسيها وتواريخها بتفاسيرها ومجاهيلها بمشاهيرها، وكان فيها من الكتب الكبار وتواريخ الامصار ومصنفات الاخبار ، يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين جزءا مجلداً فاختلطت ، فكان الدلال يخرج عشرة عشرة من كل فن كتبا مبعثرة فتقسام بالدون وتباع بالهون وقد شارك الدلال فى ابتياعها حتى اذا لفق كتابا قد تقوم عليه بعشرة باعه بعد ذلك لنفسه بمائة وحصل منها القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى على مائة الف كتاب مجلد جعلها فى المدرسة الفاضلية لما أنشأها وحصل العماد على قدر كبير منها فباع ابن صورة دلال الكتب هذه الخزانة فى عدة أيام وذكر ابن أبى واصل أن خزانة الكتب كانت تزيد على مائة وعشرين ألف مجلد .

وانقسم الناس بعد ذلك دور القصر وأعطى السلطان صلاح الدين القصر الكبير للامراء فسكنوا فيه وأسكن أبا نجم الدين أيوب بن شادى فى قصر اللؤلؤة وهو قصر عظيم على الخليج الذى فيه البستان الكافورى ونقل الملك العادل الى مكان آخر منه وأخذ أصحابه الامراء دور من كان ينسب الى الدولة الفاطمية ، فكان الرجل اذا استحسن دارا أخرج منها سكانها ونزل بها وأخليت أمكنة من القصر الغربى سكن بها الأمير موسك والأمير أبو الهيجاء السمنى

وملئت المناظر المصونة عن الناظر والمتنزهات التى لم يخطر ابتذالها فى الخاطر، وانقضت تلك الدولة برمتها وذهبت تلك الأيام بجملتها، وكانت مدة دولة الخلفاء العبيديين أو الفاطميين بالمغرب ومصر منذ قام عبيد الله المهدى الى أن مات العاضد مائتى سنة واثنتين وسبعين سنة وأياما، بالقاهرة منها مائتان وثمان سنين، والدنيا دول، فسبحان من له الدوام، وكل يوم هو فى شأن، يعطى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، إنه على ما يشاء قدير.

وقد اعتمدت فى وضع هذه الرسالة على المراجع الآتية : —

(١) كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين لشهاب الدين المقدسى .

(٢) كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لتقى الدين المقريزى .

(٣) كتاب صبح الأعشى للقلقشندى .

(٤) الكامل لضياء الدين أبى الفتح نصر الله بن محمد المعروف بابن الأثير الجزرى .

(٤) النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة لابن تغرى بردى.

(٥) كتاب سيرة صلاح الدين الايوبى للقاضى بهاء الدين المعروف بابن شداد.

(٦) تاريخ الملك المؤيد اسماعيل أبى الفداء صاحب حماه .

(٧) كتاب أخبار الدول وآثار الأول لابى العباس أحمد بن يوسف الدمشقى الشهير بالقرمانى .

(٨) تاريخ زين الدين عمر بن الوردى .

(٩) الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى للشيخ أحمد بن خالد السلاوى .

(١٠) كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر لعبد الرحمن بن خلدون .

(١١) الخطط... الخ لأبى السرور البكرى.

(١٢) أخبار مصر لمحمد بن على بن يوسف بن حلب المعروف بابن ميسر (الجزء الثانى)

(١٣) كتاب فتوح مصر وأخبارها تأليف أبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشى المصرى .

(١٤) كتاب اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء للمقريزى .

(١٦) كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان .

(١٨) كتاب الملل والنحل للامام الشهرستانى . ؟

أحمد عيسى